مكانة الشعر والشاعر فى الجاهلية

إن الشعر من الفنون الجميلة التى تعرف لدى العرب بالآداب الرفيعة كالحفر والرسم ، والموسيقى والشعر ، ومرجعها تصوير الطبيعة بجمالها الساحر فالحفر يصورها بارزة ، والرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط والألوان ، والشعر يصورها بالخيال ويعبر عنها وعن إعجابنا بها وارتياحنا إليها بالألفاظ .

بيد أن علماء العروض يريدون بالشعر الكلام الموزون المقفى وهو تعريف للنظم لا للشعر ، فقد يكون الرجل شاعراً لا يحسن النظم ، وقد يكون ناظمًا وليس فى نظمه شعر ، وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعًا فى النفس فالنظم هو القالب الذى يسبك فيه الشعر ، ويجور سبكه فى النثر[1] .

والشعر أكثر علم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تقبل شهادته ، وتمتثل إرادته ، قال رسول الله ﷺ : « **إن من الشعر لحكمة** » وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : (نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمه الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم ، مع ما للشعر من عظم المزية ، وشرف الأيبة ، وعز الأنفة ، وسلطان القدرة)[2] . وفى عمدة ابن رشيق : « العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أفضل الحكم كفضل اللسان على اليد ، والبعد من امتهان الجسد ، إذ خروج الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات ، فإنه لابد للإنسان من أن يتولى ذلك بنفسه ، أو يحتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه . وكلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، جـ١ ، ص٥٩ ، دار الهلال ، سنة ١٩٥٧م بتصرف .

(٢) بلوغ الأدب للألوسى ، جـ٣ ، ص٨٢ ، الطبعة الثانية ، نشر محمد جمال ، المكتبة الأهلية بمصر .

نوع منهما ثلاث طبقات ، جيدة ومتوسطة ، ورديئة ، فإذا اتفقت الطبقتان فى القدر ، وتساوتا فى القيمة ، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى ، كان الحكم للشعر مظاهراً فى التسمية ، لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة »[١] .

ويقول ابن خلدون : « الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به »[٢] .

ثم يستطرد ابن خلدون فيخرج من محترزات تعريفه هذا وكان مما قال « وقولنا المفصل بأجزاء متفقة . الروى ، فصل له عن الكلام المنثور الذى ليس بشعر عند الكل »[٣] .

وقولنا : « الجارى على الأساليب المخصوصة به ، فصل له عما لم يجر منه على أساليب العرب المعروفة ، فإنه حينئذ لا يكون شعراً »[٤] فلكل أسلوبه الذى يخصه .

وابن خلدون يجعل الوزن والقافية من أشراط الشعر .

ونحن نرجح أن الوزن الشعرى مقبوس من وقع أخفاف النوق والبعران فكان العربى فى الصحراء حين يجتاز وديانها يتغنى بالأراجيز ناطقًا بكلامه متوافقًا مع وقع خطاها ، وذلك ما يسمى بالحداء لدى العرب ، حيث كان العربى يقضى جل وقته بصحبة الناقة والجمل حلاً وترحالاً ثم وضعت بعد ذلك أبحر العروض المعروفة وأقدمها بحر الرجز .

ثم صار للغناء ألحان معروفة لديهم ، حيث إنهم جعلوا لكل غناء أو لحن وزنًا خاصًا به ، فصار للرثاء وزن ، وللحماسة وزن آخر فالنصب غناء الركبان والفتيان ويقال له « الجنابى » وهو لرجل من « كلب » يقال له « جناب » وهو يخرج من بحر الطويل ،

(١) العمدة لابن رشيق القيروانى ، جـ١ ، ص٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص٥٧٣ .
(٣) ذاته .
(٤) ذاته .

والسناد : هو الغناء ذو الترجيع الكثير فى النغمات ، والهزج : وهو الغناء الخفيف الذى يرقصون عليه فيطرب ويستخف الحليم[١] ، وظلوا بعد الإسلام يخصون كل لحن بوزن[٢] والعربى مفطور على الذوق الرفيع ، والإحساس المرهف ، والشعور المتدفق كما أن اللغة الشاعرة لغته ، وهى غنية بأساليبها ، واستعاراتها ، وكناياتها ، وكثرة مترادفاتها مما يجعل النطق بالقوافى طيعًا على لسانه ، سهل الورود على خاطره وجنانه ، فهو من أنطق الأمم ، كما أن لغته من أوسع اللغات وألفاظها أدل من سائر الألفاظ وغير خاف على ذى لب ما للألفاظ من أثر فى تيسير النظم وجريانه على الألسن بالإضافة إلى صفاء قرائحهم ، وجمال الطبيعة لديهم وتفرغهم الكبير للتأمل والسير والنظر ، ولذلك تراهم وصفوا كل ما وقعت عليه نواظرهم من طبيعة حية وساكنة ومتحركة .

ولقد كانت العرب فى جاهليتها تهتم اهتمامًا بالغًا بالشعر والشعراء ، كما كانت مهتمة بإعداد الشاعر اهتمامًا بإعداد القادة والخطباء ، حتى إنهم كانوا يقولون : (إن قائد القبيلة الفلانية فلان ، وقارمها فلان ، وشاعرها فلان)[٣] .

فالشاعر لسان حال القبيلة ، يذود عن أعراضها ، ويفاخر بمجودها ، ويباهى بكرمها ، ويدفع عنها شر ألسن الشعراء فيهجو من ينال منها ، ويسجل انتصاراتها ، ويخلد فرسانها وربما فضلوا ينبوغ شاعر فيهم عن وجود فارس ، ولذا كانت العرب إذا نبغ فيهم شاعراً أتت القبائل الأخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزامير كما يصنعن فى الأعراس ، وتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لأعراضهم ودفاع عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة لذكرهم[٤] وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو فرس تنتج ألا شاعر ينبغ فيهم فقد كانت القبائل تحتمى بشعرائها من هجو الآخرين لها ، فمن حمى قبيلته « زياد الأعجم » وذلك أن الفرزدق هم بهجاء «عبد القيس» فبلغ ذلك « زيادًا » وهو منهم ، فبعث إليه لا تعجل فإنى مهد إليك هدية فانتظر الفرزدق الهدية فجاءه من عنده هجو ، وهو :

(١) العمدة لابن رشيق القيروانى ٢/ ٢٤١ .
(٢) الأغانى للأصفهانى ١/ ١٠٥ .
(٣) الأغانى ٤/ ١٤٦ .
(٤) المزهر للسيوطى ٣/ ٢٣٦ .

وما ترك الهاجون لى إن هجوته ... مصحـًا أراه فى أديم الفرزدق
ولا تركوا عظمًا يرى تحت لحمه ... لكاسره أبقوه للمتعرق
سأكسر ما أبقوا له من عظامه ... وأنكحت مخ الساقى منه وانتقى
فإنا وما تهدى لنا إن هجوتنا ... لكالبحر مهما يلق فى البحر يغرق

فلما بلغته الأبيات كف عما أراد ، وقال : لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش «العبد» فيهم[1] .

والعرب لم يكن احتفالهم بالشعراء لهذا السبب فحسب ، ولكنهم بطبعهم كانوا يجلون الشعر ويعظمونه ، ويحتل مكانة كبرى فى نفوسهم وذلك لما له من وقع فى النفس وتأثير فى المشاعر ، يقول ابن عبد ربه : (يدلك على ذلك تعليق المعلقات بأسمار الكعبة إجلالاً لها)[2] .

وإن كنا قد أثبتنا بطلان هذه المقولة وذلك بما نورده من الأدلة والبراهين فى موضعه إن شاء الله .

أومأنا آنفًا من أن طبيعة العرب طبيعة شعرية ، ولغتهم لغة شاعرة وأنهم ذوو نفوس حساسة ، ومشاعر مرهفة وللكلمة وزن لديهم فهى ترضيهم وتغضبهم ، وتقيمهم وتقعدهم وهم أصحاب ذاكرة حافظة ، ولذلك كان اعتمادهم فى رواية الشعر على المشافهة ، فإذا أعجبوا ببيت من الشعر حفظوه ورووه وتناقلوه ، وسار مسير الركبان ، وكان البيت من الشعر يعلى شأن الفرد والقبيلة ويرفعها إلى السماك الأعزل ، كما كان البيت أيضًا ينزلها إلى الحضيض الأسفل ، فبيت (الأعشى) رفع صاحب الذكر الخامل وهو (المحلق) كما رفع شأن بناته العوانس فتزوجن بخيرة الشباب وهو :

تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الثدى والمحلق

---

(١) بلوغ الأدب فى معرفة أحوال العرب . تأليف السيد محمود شكرى الألوسى . تصحيح وضبط محمد بهجة الأثرى ، الطبعة الثانية ٣/ ٨٤ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣/ ٩٣ .

فطارت شهرته فى الآفاق ، وأقبل الفتيان على الزواج من بناته ، وكان كل زوج أفضل من أبيها ألف مرة .

والقبيلة إذا هجاها شاعر حط من قدرها ونقص من شرفها وبخاصة إذا كان وصفه لها ، وهجاؤه إياها مطابقًا للواقع ولا توجد قبيلة عربية نجت من ألسن الشعراء الهجائيين .

ومن القبائل التى أثر فيها الهجاء مع مقامها فى الشجاعة أحياء من (قيس) منهم (غنى) و (باهلة) و (محارب) وأحياء من (أدين طانجة) منهم (تيم) و (عكل) وغيرهما .

وهناك قبائل كان حظها من الشعراء المديح كبنى مخزوم من قريش وكانت القبيلة إذا مدحت فاخرت سائر القبائل ، لا سيما إذا كان مادحها من غير أبنائها ، ويقول ابن رشيق القيروانى (ويحكى أن شعراء تميم كانوا يذكرون قيسًا بالمدح والإعجاب ، فافتخرت قيس على تميم ، ومازالت تميم منكسة رؤسها حتى قام (لبيد العامرى) وهو من قيس فذكر تميمًا فى شعره وأطراها ، وفعل ذلك شاعر آخر من قيس فتكلمت عند ذلك (تميم) وافتخرت)[1] .

ومن أمثلة ذلك ما هجا به الشاعر (الحيطات) وهم بطن من (تميم) فقال فيهم ما حط به أقدارهم فقال :

رأيت الحمر من شر المطايا كما الحيطات شر بنى تميم

وقول (الحطيئة) فى بنى العجلان ، وقد سموا بذلك لأنهم يعجلون القرى للضيفان فبدلاً من أن كان لقب فخر واعتزاز لديهم أصبح وصمة عار يفرون منه حيث قال الحطيئة :

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ العقب واحلب أيها العقد واعجل

وكقول (حسان بن ثابت) فى بنى (عبد المدان) وكانوا قومًا عظام الأبدان ، وكانوا يفاخرون بطول قامتهم ، وعظم أبدانهم فهجاهم (حسان بن ثابت) بقوله :

لا بأس بالقوم من طول ولا قصر جسم البغال وأحلام العصافير[2]

(١) العمدة لابن رشيق القيروانى ٢/ ١٤٩ .

(٢) الديوان .

وبعكس ذلك ما حدث لبنى أنف الناقة ، فكان إذا سئل الرجل منهم قال (من بنى قريع) وهو نسب آخر لهم فقال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا[1]

فأصبحوا يفاخرون به .

فمما لا ريب فيه أن الشعر يومذاك هو النافذة الوحيدة المطلة على الحياة بكل جوانبها ، فهو وسيلة إعلامها الوحيدة وإذاعتها وصحفها اليومية ، يذيع أخبارها ، وينشر محامدها ومثالبها ، ويتغنى بمجودها ، ويشيد بفرسانها وكرمها ونجدتها .

على أن الشعراء لم يكونوا يهجون غير القبائل الظاهرة النابهة فسلمت لذلك القبائل الخاملة الذكر من ألسنتهم وسلاطتها وكانت القبيلة فى الجاهلية تعنى عناية فائقة بنصرة شاعر شهير لها كما حدث مع « الأعشى » حينما مدح الرسول عليه السلام ووفد عليه ، ولما بلغ ذلك أبا سفيان جمع رجال قريش وقال لهم : والله لئن أتى محمداً واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره فأجمعوا له مائة من الإبل ففعلوا ، وانطلق إلى بلده[2] .

وفى رواية أنهم سألوه : أين تريد ؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ليسلم فأفهموه أنه ينهاه عن الزنا والقمار والربا والخمر ، فقال : لقد تركنى الزنا ، وأبدى زهادته فى القمار ، رجاء أن يصيب من النبى عوضاً منه ، وقال عن الزنا : ما دنت ولا أدنت ، وأبدى جزعه عند ذكر الخمر ، وقال : أوه . أرجع إلى صبابة قد بقيت لى فى المهراس فأشربها ، فقال أبو سفيان ، هل لك فى خير مما هممت به ؟ فقال : وما هو ؟ فقال أبو سفيان : نحن الآن فى هدنة فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه وتنتظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً ، وإن ظهر علينا ، فقال ما ذكره ذلك ، وجمع له أبو سفيان من قريش مائة ناقة حمراء ، فأخذها وانطلق إلى بلده ، فلما كان

---

(١) الديوان .

(٢) الأغانى للأصفهانى ٨/ ٨٦ .

بقاع « منفوحة » رمى به بعيره فقتله[1] . وكان للشعر تأثير كبير فى النفوس يومذاك ، ومن شدة تأثرهم بالشعر ربما لقب الشاعر بلفظ ورد فى بيت من أبياته كما لقب «المرقش» و « النابغة » و « المخرق » و « أفنون » وغيرهم[2] . من أمثال « عائذ بن محصن » الشهير بالمثقب العبدى ، حيث لقب بذلك لقوله فى قصيدة أولها :

أفاطم قبل بينك متعينى ومنعك ما سألت كأن تبينى

ومنها :

ظهرن بكلة وسدلن أخرى وثقبن القصاوص للعيون[3]

أراد أنهن حديثات الأسنان فبراقعهن صغار ، والشاعر (شاس بن نهار بن الأسود ابن حريك) وشهرته (الممزق العبدى) ولقب بالممزق لبيت قاله لبعض الملوك ، وكان أسيرًا عنده :

أحقًا- أبيت اللعن- إن ابن فرنتى على غير أجرام بريقى مشرقى
فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق[4]

والشاعر (أعصر بن سعد) وهو أبو غنى وباهلة والطقاوة ، ولقب (أعصر) لبيت قاله ، وهو :

أبى إن أباك غير لونه كر الليالى واختلاف الأعصر[5]

---

(١) مهذب الأغانى جـ١ ، ص١٠ ، واتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عزمى للمؤلف ط ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٤٠٤هـ .

(٢) العمدة لابن رشيق القيروانى ١/ ٢٥ .

(٣) بلوغ الأرب للألوسى ٣/ ١٢٣ نشر محمد جمال ، المكتبة الأهلية ، مصر ، وطبقات الشعر لابن سلام الجمحى ، ص١١٣ ط ، مكتبة المحمودية والمفضليات للضبى ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، طبعة دار المعارف ، مصر ، رقم ٧٦ .
الكلة : الستر الرقيق ، القصاوص : البراقع ، والمفرد قصواص . منفوحة : قرية « الأعشى » وتقع قرب مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية .

(٤) بلوغ الأرب للألوسى ٣/ ١٢٤ ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ص١١٤ ، والأصمعيات ، ص١٩٠ ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وهارون الأصمعية رقم ٣٥٨ ، طبع دار المعارف ، القاهرة الإتيان ، ١٥ ، ١٦ .

(٥) الاشتقاق لابن دريد ٢/ ٢٦٩ تحقيق هارون ، مكتبة الخانجى .

و (المزرد) لقب بذلك لقوله :

فقلت تزردها عمير فإننى لدرد الموالى فى السنين مزود[1]

وقيل إن (المهلهل) سمى بذلك لقوله :

لما توقل فى الكراع شريدهم هلهلت أثأر جابرًا أو صنبلاً[2]

ومنهم (المتلمس) واسمه (جرير بن عبد العزى) وسمى المتلمس لقوله :

فهذا أوان العرض حى ذبابه زنانيره والأزرق المتلمس[3]

ومنهم (أفنون) الشاعر ، واسمه (ظالم بن معشر ، أو صريم بن معشر بن ذهل ابن تيم بن مالك بن حبيب بن عمرو بن غنيم بن ثعلب) شاعر جاهلى ، وقال أبو عمرو الشيبانى (أفنون) لقب له لقوله[4] :

الدار قفر والرسوم كما رقش العنوان فى الرق الكاتب[5]

ونلحظ ذلك فى الغناء ، فربما تأثر السامع بمعانى الشعر أكثر من تأثره بأنغام الموسيقى وبلغ من شغفهم بالشعر أنهم كانوا فى الجاهلية إذا نبغ فيهم شاعر صحبه رجل يروى له أشعاره ، ويغلب فى الرواية أن يكون مرشحًا للشاعرية ، وكان اعتماد الرواة على الحفظ يومذاك ، فكان الشاعر (كثير عزة) راوية (لجميل بثينة) وكان (جميل) راوية للشاعر و(هدبة بن الخشرم)و (هدبة بن الخشرم) كان راوية (للحطيئة) و (الحطيئة) راوية (لزهير وابنه)[6] .

---

(١) الاشتقاق لابن دريد ٢/ ٢٦٩ تحقيق هارون ، مكتبة الخانجى ، ص٢٨٦ . أبيت اللعن تحية ملوك العرب فى الجاهلية ، الفرنتى : المرأة الزانية والأمة ، وابن الفرنتى أى ابن الأمة . البغى : العصر ، الدهر وكذلك فسر فى التنزيل لدرد جمع «أدرد» والأدرد الذى ذهبت أسنانه .

(٢) ذاته .

(٣) ذاته ٢/ ٣١٧ .

(٤) المؤتلف والمختلف للآمدى ، ص١٥١ .

(٥) خزانة البغدادى ، تحقيق هارون مكتبة الخانجى ١١/ ١٥١ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.

(٦) الأغانى ٧/ ٧٨ بتصرف .

وكان الراوية فى الجاهلية وأوائل الإعلام يروى للشاعر ويصحبه وينشد له أشعاره، ويعجب به إعجاب التلميذ بأستاذه وينافح عنه ، وربما يفضله على من سواه من الشعراء .

وهذه العادة ليست خاصة بالعرب ، فإن اليونان القدماء كان عندهم أناس يروون الشعر وغيره ، وأشهر رواتهم فى القديم رواة (الإلياذة) على أن بعض الأدباء ، وأهل الذكاء من العرب كان يروى الشعر دون التخصص بشاعر دون آخر ، وكان يفعل ذلك رغبة فى العلم والأدب ، وكان فى القديم أربعة من قريش كانوا رواة للأشعار ، وعلماء بالأخبار والأنساب وهم : (مخرمة بن نوفل) و (أبو الجهم بن حذيفة بن غانم) و(حويطب بن عبد العزى) و (عقيل بن أبى طالب) وكان (عقيل) أكثر ذكراً لمثالب الناس[1] .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ١/ ١٠١ بتصرف ، طبع دار الهلال ، سنة ١٩٥٧م .

obeikandl.com